التفاؤل

فى شعر إيليا أبى ماضى

١

يختلف الناس فى إقبالهم على الحياة ، منهم من يقبل عليها محزوناً مبتئساً لا يراها إلا شؤماً ونكراً وظلمة ما وراءها ظلمة ، ومنهم من يقبل عليها فرحاً مبتهجاً لا يراها إلا فألا وخيراً ونوراً ما فوقه نور . والأولون هم المتشائمون الذين لا يرون فى الحياة إلا الشقاء والألم ، فإن وصفوها صوروها فى أبشع صورها وعرضوا علينا سيئاتها وما يداخلها من مرارة ، والآخرون هم المتفائلون الذين لا يرون فى الحياة إلا السعادة والسرور فإن وصفوها صوروها فى أجمل صورها وعرضوا علينا حسناتها وما يطوى فيها من بهجة وفرح .

ومذ وجد الشعر العربى وجد فيه الفريقان ، فريق يصور الحياة على أنها محن وخطوب وكوارث ، وفريق يصورها على أنها متع ولذائذ وهناء وصفاء . ولعل طَرَفة خير من يعبر عن الفريق الثانى فى الجاهلية ، فهو يعلن فى معلقته أن متعته فى حياته ثلاث : الخمر والمرأة والشجاعة ، وهو يُرضى نفسه فيها جميعاً قبل أن يرضى الناس ، فهو لا يفكر فى غيره ، إنما يفكر فى لذائذه . وقد تكون الحياة الوثنية المادية التى كان يحياها العرب حينئذ هى التى دفعت طرفة وأمثاله فى الجاهلية إلى أن يقتنصوا فرصة دنياهم وينهلوا من كئوس اللذة والمتعة فيها حتى الثمالة فإنهم لم يكونوا يدينون بالآخرة وكانوا يظنون أن الإنسان إذا مات فنى وانتهى وأنه ليس له حياة وراء حياته ، وهم لذلك يريدون أن يحسوا كئوسها ، فالعمر قصير والموت قريب .

ولما دخل العرب فى الإسلام حرم عليهم الخمر وأن يأتوا بفاحشة ، وقد فتح أمامهم أبواب الحياة الآخرة التى كانت مغلقة فى الجاهلية ، فانصرفوا

جملة عن متاع الحياة الدنيا ، وطلبوا ما عند الله من ثواب ونعيم ، ومتاع أخروى مقيم . على أن بقية منهم بقيت تفكر فى متع الحياة العاجلة وملذاتها ، فكانوا يقبلون على الخمر وكانوا يُحَدُّون فيها ويقام عليهم العقاب ، حتى إذا توغلنا فى أواخر العصر الإسلامى لعهد الأمويين وجدنا شعراء فى العراق يحيون الليل بالشراب والطرب ، بل وجدنا الوليد بن يزيد ، الخليفة الأموى للشهور ، يعكف على الخمر واللهو ، حتى ليتحول قصر الخلافة إلى مقصف كبير للغناء والشراب .

وتتسع مع العصر العباسى موجة اللهو والعبث والمجون ، فالناس يقبلون على الخمر والغناء ومجالس الأنس . ويكثر الشعراء الذين يتغنون فى الخمر والقيان على نغم الناى وآلات الطرب فى الحانات وفى الأديرة وعلى الغدران والأنهار وبين قطع الرياض . وهم ليسوا جميعاً سواء فى الإحساس بهذا المتاع . أو بعبارة أخرى ليست نفوسهم سواء ، فمنهم من أضناه التفكير فى الحياة وهمومها ، وهو يغرق هذه الهموم فى الخمر ، ومنهم من يريد أن يكمل متاعه بدنياه ، فالحياة لا تزورّ له ولا يجد فيها مرارة ، وهو لذلك يقبل على الخمر والقصف حتى يستتم متاعه بما تشتهيه نفسه .

وقد عرف العرب ضروباً مختلفة من التفكير فى الحياة ، وترجمت لهم كتب الفلسفة ، ونقل إليهم الموالى فرساً وغير فرس كل ما كان لديهم من نحل مانوية وغير مانوية ، وكان كل ذلك يؤثر فى العقائد والنفوس ، فتزندق من تزندق ، واتسع بكثيرين التفكير فى الوجود وفى الصلات الكائنة بين الإنسان وإلهه وبينه وبين الظواهر المختلفة فى الكون ، وعجز نفر عن تبين هذه الصلات فضلا عن تعليلها أو معرفة ما اختفى منها . وبذلك غاصوا فى لجج من الشك والحيرة ، فالتمسوا اللذة فى الخمر وأفرطوا فى إرضاء الجسد والحس وكان هناك ماجنون يقبلون على اللذة ، لأنها تنعش نفوسهم وتبهجها وتجلو صداها ، ولكن لم يكونوا هم الكثرة ، أو بعبارة أدق لم يكونوا هم المتمردين الذين عصروا خيالهم وإحساسهم فى بيان غبطتهم باللذائذ واستغراقهم فى الخمر

استغراقاً يشبه أن يكون عبادة . وأبو نواس خير من يصور هؤلاء المتمردين ، وقد اجتمعت له كل المؤثرات التى تدفع إلى الإفراط فى المجون ، فقد مات أبوه وهو فى المهد ، وكانت الربية تحوط أمه ، وألقت به الظروف فى حجر والبة ، أحد مُجّان عصره ، وخرج ماجنا من طراز لم يسبق إليه ، وقد ألم بجميع ضروب الثقافات والمعارف فى زمنه ووعى من أفكارها المتناقضة ما زاد الاضطراب فى نفسه اضطراباً أفضى به إلى المجون الحاد ، بل إلى الشذوذ فيه كما أفضى به إلى الخمر بل إلى عبادتها عبادة كانت ثمرتها هذه الخمريات التى اشتهر بها ، والتى فاق فيها كل من سبقه ولحقه فى تاريخ الشعر العربى . وهو فى هذه الخمريات ، لا يصور عبادته لها واستغراقه فيها فحسب ، بل يصور أيضاً شكه وحيرته فى الحياة بل فى العقيدة ، فينكر الدين ويثير غباراً من الإلحاد الصريح ، ويندفع فى الخمر يعب من كئوسها قبل أن تنضب وتنضب معها كئوس العمر والحياة .

وتسير على الدروب فى العالم العربى كله هذه الفلسفة النواسية ، فلسفة الخمر والمجون ، فنلتقى بها فى كل مكان ، حتى أقصى البلاد الإسلامية شرقاً فى إيران وخراسان وغرباً فى الأندلس . وقد توسع الأندلسيون فى وصف الطبيعة ، وأضافوا إلى صبوح الخمر وغبوقها وصف وداع المحبوبة وما يصاحبه من قلق العاشق وخوفه واضطرابه ، ولكن أحداً لم يبلغ عندهم مبلغ أبى نواس فى خمرياته ، سوى شاعر فارسى ساقته المقادير لكى يبدع فيها إبداعاً غريباً .

وعمر الخيام هو الشاعر الفارسى الذى اختارته المقادير لكى يتناول قيثارة الخمر ، ويشدو عليها من جديد أنغاماً لا تقل جمالا عن أنغام أبى نواس ، بل لعلها تفوقها روعة ، فقد كانت أزمته النفسية أمام الوجود والكون وأسراره والحياة ومصيرها أشد حدة وعنفاً من أزمة سلفه ، وهو لذلك لا يهدأ ولا ينعم بلحظة راحة ، بل هو دائماً فى قلق قد استحوذ على كيانه أمام الحياة وألغازها التى لا يستطيع حل طلاسمها وفك رموزها مهما غاص فى أعماق تفكيره ،

وهو ينظر أمام عينيه ، فيرى الموت شاخصاً ، متأهباً أن يبدد أيامه وساعات عمره بين عشية وضحاها ، فيملأ الكأس بالخمر لعله ينسى أو لعله يطيب نفساً . ويعاوده تفكيره فى الفناء وفى القضاء وما خطته الأقدار ، فينغمس فى الخمر لعله ينسى هواتف هذه الأفكار ، ويدعو صحبه أن يغنموا الفرصة وأن لا يفكروا فى الأمس ولا فى الغد المهول المخيف ، وحسبهم أن يقبلوا على الخمر فهى ينبوع هذا الوجود وسره ، وهى التى تحول كئوسه المرة حلوة سائغة بما تنعش وتبهج ، إنها كل ما فى الحياة من جمال ، فدع السماء وما فى السماء ودع الموت وأهوال الفناء ، ولا تُصْغ للعقل وعبثه فى الجدل والحوار ، فإنه لن يستطيع آن يفك معمى أو لغزاً من ألغاز الحياة أو سرًّا من أسرارها ، فهو عاجز ، بل هو كفيف ضرير ، يخبط فى عمياء . وما لهذا العناء كله وأمامنا الخمر ومصابيحها المتقدة التى تنسينا عالم الفناء ومصير الأحياء . لقد جئنا إلى الأرض بدون إرادة ونخرج منها بدون إرادة ، وكل ما نلقاه فيها من حظ قَدَرٌ مقدور لا مفر منه ، فلندع التفكير فيها ، فإننا لُعَبٌ فى يد القدر يعبث بها وكُرات يتقاذفها فى ميدان الحياة ، وحسبنا أن نرتشف الخمر ونسكر ونطرب ، حتى نباعد بيننا وبين عالم العقل وتفكيره الذى يطحنه فى غير طائل ، والذى لا نجنى منه غير العناء والعذاب . وإذن فلنهجر العقل وأفكاره فى الحياة والكون ، ولننطلق — مع الخيام — إلى عالم الخمر السعيد ، نشربها على ضوء القمر وضفاف الغدران وعلى صوت الناى الساحر ، حينئذ نحرر أنفسنا — بزعمه — من آلام الحياة المضنية وتغمرنا نشوة السعادة ونحس الراحة الحقيقية فى دنيانا الزاخرة بالآلام والأحزان .

٢

ولعل المهاجر الأمريكى لم يعرف فى هذا القرن شاعراً كان أكثر تفاؤلا ودعوة إلى الإقبال على الحياة من إيليا أبى ماضى وهو لبنانى الأصل ، ولد فى المحيدثة سنة ١٨٨٩ ولم يكد يتم تعليمه الابتدائى حتى رحل إلى مصر فى

سنة ١٩٠٠ وظل بها إحدى عشرة سنة يشتغل فى التجارة ، وتفتحت أثناء ذلك موهبته الأدبية ، فنظم الشعر وطبع أول ديوان له باسم « تذكار الماضى » ولم يلبث أن هاجر إلى الولايات المتحدة ونزل سنسناتى ، ثم تركها إلى نيويورك ، وفيها ألقى عصا ترحاله حيث التقى بجبران خليل جبران ورفاقه من أمثال ميخائيل نعيمة ونسيب عريضة ورشيد أيوب ، ولما ألفوا جماعة الرابطة القلمية بزعامة جبران انضم إليهم ، وهى الجماعة التى كان لها أثر بعيد فى النهوض بشعرنا الحديث .

وكان جبران شاعراً وكاتباً ورساماً فى آن واحد ، وكان مثقفاً بالآداب الغربية ثقافة واسعة ، وقد نزع فى شعره منزعاً رومانسيا ، وقصيدته « المواكب » تعد أمًّا لشعر المهاجَر الأمريكى جميعه شمالا وجنوبًا ، وهو فيها ثائر على أوضاع الحياة الإنسانية بقوانينها وشرائعها ونراه — وقد أفعمه الألم — يطلب إلى الناس أن يفروا من حياة المدن والمدنية إلى الغاب أو إلى الطبيعة حيث البساطة وحيث لا سيادة ولا عبودية ولا عدل ولا ظلم ولا قوة ولا ضعف ولا إيمان ولا كفر ولا خير ولا شر ، ويتطلع إلى المجهول الخالد ويرمز إليه بالموسيقى والغناء على الناى ، فيجعله خاتمة لكل نشيد من أناشيد قصيدته . وتسرى هذا الروح الرومانسية فى شعراء الرابطة القلمية جميعاً ، ويسرى معها إحساس عميق بآلام الحياة الإنسانية ، فهم يفكرون فى حقائقها المظلمة التى تبعث على اليأس ، وقد ينظرون فى السماء أو يتأملون فى الطبيعة باحثين عن روح الوجود وحقيقته الخالدة ، والقلق يملأ نفوسهم ، والحزن يتفجر فى قلوبهم .

وتأثر أبو ماضى بهذه النزعة الرومانسية عند جبران ورفاقه ، ولكنه لم يجر فيها إلى نهاية الشوط ، وكأنما كانت هناك مقومات تعوقه أن يسير فى الدرب إلى غايته ، وربما كان ذلك راجعاً إلى وراثته عن أبيه ، فقد ذكر فى رثائه أنه كان مبتهج النفس لا يحب الحياة إلا شائقة رائقة ، يقول :

وكنتَ ترى الدنيا بغير بشاشةٍ كأرض بلا ماءٍ وصوتٍ بلا لَحْنِ

ويظهر أن حياة أبى ماضى نفسه كانت وادعة سهلة ، فلم تعصف به

ولا بقلبه عاصفة التشاؤم الشديدة التى نجدها عند جبران ورفاقه ، وكأنما كانت إرادة الحياة عنده أقوى من أن تنت فيها هذه العاصفة ، فنفضها عن نفسه ، وإن بقيت آثارها عالقة بخياله ومشاعره : فهو مهما فكر فى آلام الإنسانية وفى المجهول وألغازه وفى الموت وأسراره لا يفضى إلى اليأس الخالص بل تلمع أقواس التفاؤل دائماً فى سماء وجدانه ، حتى فى أحلك اللحظات وأشدها قتمة وعبوساً . ولماذا يحزن الإنسان ويبتئس فى دنياه ؟ إنه ينبغى أن يقبل الحياة كما قسمت له وأن لا يسخط على السماء ولا على الأرض ولا يتمرد على ما أريد به ، بل يرضى بما كتبه القضاء ، فهو الذى يسيره فى الطريق المرسومة له .

وتعبّر به بتأثير جبران ورفاقه أحوال نفسية مختلفة ، يشعر فيها بالألم الإنسانى ، ولكن لا يلبث أن يرتد إلى تفاؤله ، وكأنما كان التقاؤه بهم ومعيشته معهم بمثابة ضغط شديد على شاعريته ، لتكثر خواطره فى الكون والطبيعة وآلام البشرية ، وليتجلى له التفاؤل فى أجنحته الزاهية اللامعة ، لقد وجد فى آلامهم إزاء الوجود والحياة ما يوقظ فيه فكره ومشاعره من طرف ويوقظ نزعته المتفائلة من طرف آخر ، فهو يتأمل فى الغاب والطبيعة وهموم الإنسان ولكن دون أن يتورط فى تشاؤم مرير ، بل إنه يندفع اندفاعاً إلى تفاؤل مضىء تشرق به نفسه . وبذلك زخر تفاؤله بفكر عميق . ويظهر أنه قرأ رباعيات عمر الخيام ، وأثرت فى قلبه تأثيراً عميقاً ، فكثير من أفكاره يجرى فى شعره ، وتفاؤلهما يتطابق فى كثير من جوانبه ، وإننا لنجد عنده كل ما ينادى به الخيام من المتاع بالملاذ فى الحياة وأن نبعد عن أذهاننا شبح الغد والفناء والتفكير فى أسرار الوجود وألغازه ، لأن تفكيرنا فى ذلك كله يعود بعد عناء البحث كليلا حسيراً .

ومعنى ذلك أن تفاؤل أبى ماضى تجرى فيه فلسفة الخيام فى رباعياته ، كما تجرى فيه نزعة جبران الرومانسية هو ورفاقه ، وأتاح هذا كله لتفاؤله ثراء فى المعانى والمشاعر والأحاسيس ، فهو لا يتفاءل تفاؤل البُلْه ولا تفاؤل من يأخذون الحياة من ظاهرها المضىء ويمضون دون تفكير فى جوانبها المظلمة ،

ونستطيع أن نطلع على تفاؤله اطلاعاً واضحاً حين نستعرض دواوينه الثلاثة التى نشرها فى نيويورك ، أما ديوانه الأول الذى نشره فى سنة ١٩١٩ فلعل خير قصيدة تمثل هذه النزعة عنده هى قصيدة « فلسفة الحياة » وفيها يقول :

أيُّهذا الشاكى وما بك داءٌ ... كيف تَغْدو إذا غدوتَ عليلا
إن شرَّ الجناة فى الأرض نفسٌ ... تتوقَّى قبل الرحيل الرحيلا
وترى الشوك فى الورود وتَعْمَى ... أن ترى فوقها النَّدَى إكليلا
والذى نفسُه بغير جمال ... لا يرى فى الوجود شيئاً جميلا
فتمتعْ بالصبح ما دمتَ فيهِ ... لاتخفْ أن يزول حتى يزولا
واطلب اللهوَ مثلما تطلب الأط ... يارُ عند الهجير ظلاً ظليلا
أنت للأرض أولا وأخيراً ... كنتَ ملْكاً أوكنتَ عبداً ذليلا
كلُّ نجمٍ إلى الأفول ولكنْ ... آفةُ النجم أن يخاف الأفولا
ما أتينا إلى الحياة لنَشْقى ... فأريحوا أهلَ العقول العقولا
كنْ هزَاراً فى عُشِّه يتغنى ... ومع الكَبْل لا يبالى الكبولا
هو عِبْءٌ على الحياة ثقيلٌ ... من يظنّ الحياة عبئاً ثقيلا
أيهذا الشاكى وما بك داءٌ ... كن جميلا تَرَ الوجودَ جميلا

والفكرة المسيطرة على القصيدة هو أن نأخذ المتعة من الحياة دون تفكير فيها ولا فى آلامها ، ويحاول أن يُخَدِّر حسَّنا ، بالضبط كما يصنع الخيام ، فى رباعياته — فالحياة جميلة ، وجمالها يرد إلى النفس ، ولا عبرة بما يبدو من منغصاتها ، إن الإنسان هو الذى ينغص عيشه بيده ، فالعبرة بنفوسنا لا بقيم الأشياء فى ذاتها ، فمن كانت نفسه سليمة جميلة رأى الحياة سارة بهيجة ، ومن كانت نفسه مريضة كئيبة رآها مشوهة كريهة . فلنمرح ولننعم باللحظة التى نحن فيها ، ولنطرح كل هم عن ظهرنا ، ولنلق عنا كل فكر فى غصصها وخاصة الغصة الكبرى غصة الموت والفناء . إن كل إنسان فان لا محالة فلنطرد خوف الموت عن أنفسنا ولنعبّ عبًّا من كئوس الحياة ومتعها ، إننا لم نأت للحياة

لنشقى ونجمع الهموم علينا ، ولنكن مثل الطير تتغنى فى الهجير ، بل لنكن مثل الهزار يتغنى وهو فى القيود ، وعلى هذه الشاكلة يحاول أن يخدر إحساسنا بآلام الحياة وما نشكو منه فى دنيانا .

ونمضى مع أبى ماضى فى ديوان الجداول الذى نشره فى سنة ١٩٢٧ فنجد هذه الفلسفة التى أذاعها فى ديوانه الأول مبثوثة فى غير قصيدة ، وهو يذيع معها استسلاماً للمقادير ، مع الإنكار الشديد لكل ما يقال عن الغد المجهول ، ولعل خير قصيدة تصور ذلك قصيدته «بَرِّدى يا سحب» وفيها يقول :

رضيتْ نفسى بقسمتها ... فليراودْ غيرىَ الشُّهبا
ما غدٌ يا من يصوِّره ... لىَ شيئاً رائعاً عجبا
ما له عينٌ ولا أثرٌ ... هو كالأمس الذى ذهبا
اسقنى الصهباءَ إن حضرتْ ... ثم صفْ لى الكأسَ والحبَبا
إنَّ صدقاً لا أحسُّ به ... هو شىءٌ يشبه الكذبا
أنا من قومٍ إذا حزنوا ... وجدوا فى حزنهم طربا

فهو مذعن للقدر راض بحظه المقسوم ، وهو لا يريد أن يفكر فى الغد والفناء ، فالغد لم يأت ، وهو أيضاً لا يريد أن يفكر فى الأمس وهمومه ، فحسبه أن يفكر فى حاضره ، إن الغد لم يولد والأمس قد انتهى ، وهو يدعو صاحبه أن يصب له الخمر وأن يحدثه عنها وعن كئوسها ويترك حديث الغد المجهول ، فإن الصدق الذى لا يحس به مثله مثل الكذب سواء بسواء . وأبو ماضى يستمد فى هذه القطعة من رباعيات الخيام مباشرة ، إذ يتردد فيها أن ينعم الإنسان بالخمر ونشوتها ويدع التفكير فى الأمس والغد ومصير الحياة ، يقول أبو ماضى : وما مصير الحياة ؟ إن كل ما يقال عنه مما يسمى صدقاً هو أشبه ما يكون بالكذب . ويعلن أنه يقتبس فرحة الحياة حتى من خلال الحزن والألم .

وقد قلنا آنفاً إن رومانسية جبران ورفاقه أثرت فى تفاؤله ، فإن هذا التفاؤل

اصطدم بتشاؤمهم وبتفكيرهم العميق فى آلام البشر مع التأمل فى الطبيعة والكون ، واتخذ ذلك عنده فى بعض قصائده شكل صراع نفسى بين الإحساس بهموم الحياة والإحساس بمتعها على نحو ما نرى فى قصيدة « المساء » التى يرمز بها إلى الكهولة . وفيها نجد فتاة تسمى « سلمى » ترنو إلى غروب الشمس وقلبها زاخر بالقلق والهم فإن الضحى ، بل النهار جميعه، فَرَّ من تحت عينها وغاب عن بصرها ، وهى مكتئبة لما ينشر المساء حولها من ظلام ، ويسألها أبو ماضى لماذا تجزع على النهار أو الشباب الماضى وللدجى الحاضر (دجى الكهولة) أحلامه ورغائبه وسماؤه وكواكبه ، ويطلب منها أن تطرح عنها همومها وأن تمتع نفسها بما فى ليلها من جمال ، فتصغى إلى صوت الجداول وتستنشق نسيم الأزهار وتبصر الشهب سابحة فى أجواز الفضاء قبل أن ينزل بساحتها الموت ويحل العدم والفناء .

فاصْغى إلى صوت الجـــدا ول جـــاريات فى السفوحْ
واستنشقى الأزهـــار فى الـ ـجَنَّـــات ما دامتْ تفوح
وتمتعى بالشهب فى الـ أفلاك ما دامت تلوحْ
من قبل أن يأتى زمـــا نٌ كالضباب أو الدخانْ
لا تبصرين به الغدير
ولا يلذُّ لك الخـــرير

ويطلب منها أن لا تفكر فى الحياة ، فالتفكير فيها يبعث على الإحساس بآلامها ، ويقول لها : دعى الكآبة والأسى ، وعودى إلى مرحك القديم فى ضحوة النهار ، ولتكن حياتك كلها آمالا وأحلاماً جميلة . وهو هنا — كما رأيناه — فى قصيدته «فلسفة الحياة » يحاول أن يخدِّر حِسَّ سلمى إزاء هموم الحياة وخطوبها ، فيطلب إليها أن تنسى ما هى فيه من كهولتها وأن لا تذكر ما مضى من شبابها وتمتع نفسها عن طريق حسها المخدَّر بالطبيعة وغير الطبيعة . ولعل أكثر قصائده فى هذا الديوان سروراً بالحياة هى قصيدة « تعالىْ » وفيها تمتزج فرحة الحب

بفرحة الخمر والطبيعة ، وهو يفتتحها بقوله :

تعالىْ نتعـــاطاها كلون التِّبْرِ أو أسطعْ
ونسْقى النرجس الواشى بقايا الراح فى الكاس
فلا يعرف ما نحنُ ولا يبصر ما نصْنعْ
ولا ينقل عند الصبْ ح نجوانا إلى النـــاسِ
تعالى نسرق اللـــذا ت ما ساعفنا الدهر
وما دمنا وما دامت لنا فى العيش آمال

فهو يدعو صاحبته أن تتناول الكأس معه وأن تنعم بليلها وأحلامه ويقول لندع الخوف من الواشين ومن الناس ، ولنختلس اللذات اختلاساً ، فهى آمالنا وسعادتنا فى الحياة ، بل إنه ليثور ثورة عارمة على العرف والتقاليد .

تعالَىْ نطلق الروح ين من سجن التقاليدِ
فهذى زهرةُ الوادى تذيع العطر فى الوادى
وهذا الطير تَيَّاهٌ فخورٌ بالأغاريد
فمن ذا عَنَّفَ الزهر ةَ أو من وبَّخ الشادى

وكأنه يتخذ من الزهر وما يذيع من عطر والطير وما تشدو من أغاريد دليله على هذه الثورة الحسية وما يطلبه من لذات الحب ومتعه . ولا يلبث أن يدعوها إلى الغاب ليمتزجا معاً كامتزاج الماء والخمر فى الكأس . وتتحد الطبيعة اتحاداً تامًّا مع حبه ، فهو إذا ضحك ضحك معه الفجر وإذا ركض ركض معه الجدول والنهر، ودائماً نجده يصيح بملاذه ، حتى وسط القفر :

علمتْنى الحياةُ فى القَفْرِ أنى أينما كنت ساكنٌ فى التراب
وسأبقى ما دمت فى قفص الصَّلْ صال عَبْدَ المنى أسيرَ الرغاب
خلتُ أنى فى القفر أصبحت وحدى فإذا الناس كلهم فى ثيـــابى

فالطبيعة لا تستطيع أن تنسيه رغباته الحسية ، وهى تصرخ فى كيانه وأعماقه كما تصرخ معها مادية مسرفة ، فهو لا يؤمن بعالم آخر وراء دنياه ، وهو لذلك

يدعو إلى الإقبال على ملاذها قبل أن نتحول إلى لا شيء ، إلى العدم والفناء ، وقد تنتابه لحظات تفكير فى عالم السماء ، ولكن سرعان ما يهبط إلى كونه المادى ومطالبه الحسية . و تبدو دائماً له الحياة جميلة ، فإن لم تكن جميلة خَدَّ رَحِيسَة وأنامه وتصورها جميلة خلابة تبعث على الرضا والتفاؤل والابتسام .

وتلقانا هذه الروح فى ديوانه الثالث « الخمائل » الذى نشره فى سنة ١٩٤٢ فالدنيا من حوله زاهية مشرقة وإن ادلهمت من جانب لا تلبث أن تضىء وتنير من جانب آخر ، وهو يدعونا أن لا نغتم ولا نبتئس حتى لو ابتأست الطبيعة نفسها ، فالعمر قصير وحياتنا وشيكة الزوال وسننتهى إلى العدم ولا محيص ، فحرىٌّ بنا أن نلقى الحياة مبتهجين ، دون أن ننغصها بذكرى شباب تولى أو محبوبة خانت أو تجارة خسرت أو أعداء كشروا عن أنيابهم الحداد ، وحتى كوارث الليالى وخطوبها يجب أن نلقاها بالتفاءل والابتسام يقول فى قصيدته « ابتسم » :

قال : السماء كئيبةٌ وتجهَّما ... قلت : ابتسمْ يكفى التجهُّم فى السَّما
قال : الصِّبا ولّى : فقلت له ابتسم ... لن يرجع الأسف الصِّبا المتصرِّما
قال : التى كانت سمائى فى الهوى ... صارتْ لنفسى فى الغرام جهنما
خانت عهودى بعد ما ملَّكتها ... قلبى ، فكيف أطيق أن أتبسَّما
قلت : ابتسم واطرب فلو قارنتها ... قضَّيتَ عمرك كله متألما
قال : العِدَا حولى علتْ صيحاتهم ... أأُسَرُّ والأعداء حولى فى الحمَى
قلت : ابتسم ، لم يطلبوك بذمهم ... لو لم تكن منهم أجلَّ وأعظما
قال : الليالى جرَّعتنى علقماً ... قلت : ابتسم ولئن جَرَعْتَ العلقما
واضحك فإن الشهب تضحك والدجى ... متلاطمٌ ، ولذا نحبُّ الأنجما
قال : البشاشة ليس تُسعد كائنا ... يأتى إلى الدنيا ويذهب مُرغماً
قلت : ابتسم ما دام بينك والرَّدَى ... شبرٌ ، فإنك بَعدُ لن تتبسما

فلتكن فلسفتنا الابتسام دائماً ما دمنا أحياء ، ولننتهز فرصة الحياة قبل أن

نصير إلى لاشىء، إلى تراب فى تراب . وما يزال يردد أن الإنسان الكئيب يصبغ الحياة بكآبة نفسه وأفكاره السوداء التى تلح عليه ، فالتشاؤم والتفاؤل مرجعهما إلى الإنسان ، فهو الذى إن قبل الحياة كما يهديها القدر إليه أشرقت نفسه واغتبطت وابتسمت ، وإن لم يقبلها وأحسّ بأشواكها وشرورها أظلمت نفسه ويئست وابتأست ، فنفس الإنسان هى التى تعكس له الحياة إما نقية جميلة ، وإما كدرة قبيحة ، يقول من قصيدة بعنوان « الغبطة فكرة » .

أقبـل العيـدُ ولكـن ليس فى الناس المسرّه
لا أرى إلا وجـوهـاً كالحـات مكفهـرّه
وخـدوداً بـاهتـات قد كساها الهمُّ صُفره
وشفاهاً تحـذر الضحـ ك كأن الضحك جَمْره
ليس للقـوم حديثٌ غـير شكوى مستمره
لا تَسلْ ماذا عَـراهم كلهـم يجهـل أمره
حائرٌ كالطـائر الحـا ئف قـد ضَيّعَ وَكْرَه
فوقه البازىُ ، والأشـ راك فى نَجْد وحُفْـرَه
كلهم يبكى على الأمـ س ويخشى شَرَّ « بكره »

أيهـا الشاكى الليـالى إنمـا الغبطة فـكره
ربمـا استوطَنَت الـكو خَ وما فى الكوخ كِسْره
وإذا رَفّتْ على القَفْـ ر استوى ماءً وخضرَه
لك ، ما دامت لك، الأر ضُ وما فوق المجـرّه
فـإذا ضيّعتهـا فالـ كون لا يعـدل ذَرّه
فـتهـلّلْ وتـرنمْ فـالفتى العابسُ صخـره
سكن الـدهر وحانتْ غفـلةٌ منـه وغـرّه
إنـه العيـد وإن الـ عيـد مثـل العُرْس مَرّه

فالناس هم الذين ينشرون جو الحزن والكآبة حولهم ، بما يصورون لأنفسهم من سيئات الحياة وشرورها ، يفكرون فى الأمس الماضى ومحنه وفى الغد المقبل وظلمه ، وإن الواجب أن يتخلصوا من هذه الهموم الثقيلة التى تجثم على صدورهم وتُشيع فى حياتهم الحزن والسواد والقلق والخوف . إن الغبطة تنبع من النفس حين يعيش الإنسان عيشة راضية بحاضره ، فلا تهتف به هواتف الماضى ولا هواتف المستقبل : هواتف الفناء والعدم ، إنما تهتف به ملاذ اللحظات الحاضرة ، وما الغبطة ؟ إنها رمز الجمال فى الحياة ، بها يكتسى الغصن رونقه ونضرته ، وبها يصبح القفر جنة وفردوساً مشتهى ، فلتبتهج ولتفرح ما دمت حيًّا .

ولا يزال أبو ماضى فى الخمائل كما رأينا فى الجداول يكرر أن العدم والفناء نهاية الحياة وأن حريًّا بنا أن ننهب متع دنيانا وملذاتها نهباً قبل أن تفلت فرصة العمر من أيدينا ، ودائماً متعها وملذاتها الحب والخمر والطبيعة :

اخلق لنفسك بالمدامة جنّةً ... فى الأربُعِ المهجورة الأدْراسِ
الحب فيها بلبلٌ وخميلةٌ ... ونَدًى وأضواءٌ على الأغراس

ولا يمل الدعوة إلى اطراح الهموم ونسيان الآلام وكل ما يعكر صفاء الحياة ونقاءها ، فلك لحظة المتعة والسعادة التى أنت فيها ، وكل ما عداها باطل وقبض الريح .

٣

وهذا التفاؤل الذى يجرى فى شعر أبى ماضى تنفذ فيه من حين إلى حين لحظات حيرة وقلق ، فهو لا يتفاءل فى الحياة عن غير بصيرة وفهم ، بل هو يفكر فيها وفيما يلوّن بعض جوانبها من تشاؤم وسواد ، حتى لنراه يقرن الصفحتين والمنزعين ، ويجعلهما صراعاً بين القلب والعقل كما فى قصيدته « بين مد وجزر » فالقلب يفجر ينابيع السعادة فى النفس ، والعقل يفجر ينابيع الشقاء ، ويضغط عليه الحزن فيقول :

لا تسألونى اليوم عن قيثارتى ... قيثارتى خشبٌ بلا أنغامِ

فلم يكن تفاؤله عابثاً أو لاهياً عن التفكير حتى فى التفاؤل نفسه ومصدره ومصدر ما يبحث عنه من مسرة ، وقصيدته « العنقاء » تصور مدى عنائه فى هذا البحث ، فقد ذهب يطلب السعادة عند الطبيعة ، عند الفجر والدجى والنجوم والبحر ، فسخرت منه ، فطلبها فى القصور والأكواخ ، فلم يجد لها أثراً . ونصحوه أن يتزهد ، فوأدَ أفراحه وحطم أقداحه ، ورزح تحت الزهد حتى كاد أن يلفظ أنفاسه ، ولم يفز منها بطائل ، فترك عالم اليقظة إلى عالم الرُّؤى والأحلام ، لعله يراها فى أطياف المنام ، يقول :

ثم انتبهتُ فلم أجد فى مخدعى إلا ضلالى والفِـرَاش ومخدعى

وذهب يطلبها فى الزمان ومروره ولكنها لم تلح له ، وعرف أخيراً أنها لا تأتى من الخارج ، فهى مستقرة فى داخله إذ تكمن — كجذوة نار — فى النفس وفى أحاسيسها وفى أساها ودموعها ، يقول :

عَـصَـرَ الأسى روحى فسالت أدمعاً فلَمحتُها ولمستها فى أدمعى
وعلمت حين العلمُ لا يُجدى الفتى أن التى ضَيَّعتها كانت معى

فتفاؤل أبى ماضى لم يكن فارغاً من القلق والحيرة والإحساس بالأسى والألم . واقتران تفاؤله بهذا الإحساس هو الذى أعطاه حدته وتوهجه ، فهو يقبل على التفاؤل فراراً من التشاؤم الكريه وما يجر من حزن وقلق ، بل لكأنه الملجأ الذى يجد فيه راحة قلبه من الهواجس المخيفة والخواطر المفزعة المرعبة ، وهى خواطر لا تأتيه من إحساسه بآلام الإنسانية وحدها ، بل تأتيه أيضاً من عجزه عن حل ألغاز الوجود وفهم أسراره ، فما الكون وما الفلك وما الطبيعة وما بدؤها ونهايتها ؟ ومن أين نجىء وإلى أين نذهب ؟ وما الموت المخيف الذى لا يبقى على حى ؟ وما الدين وعالم السماء ، وهل يستطيع هذا العالم أن يفسر لنا المعميات التى نحار فيها ، وهل هو عالم حقيقى أو من صنع الخيال ؟ لقد حاول فى قصيدته « نار القرى » أن يصعد فى مدارج هذا العالم ، فطار قليلا ، ولم يلبث أن هوى إلى الأرض ، وظل فيها وظل معه قلقه وحيرته ، فلجأ إلى العقل

يسأله ولم يجد عنده جواباً شافياً ، فيئس منه ، ومضى يتخبط فى شكه ، غير مؤمن بشيء سوى وجوده وما يكون بعد الوجود من موت وعدم :

ما لحيٍّ بالموت عنه انفصالٌ إنَّ دنياه هذه أُخْـــراه

فمن شاء فلينعم بدنياه وملاذها قبل أن يفوت الأوان وينزل به الفناء الساحق الماحق ، وليدع التفكير فى الحلال والحرام وما شرعه النبيون!:

أكبرُ الإثم قولةُ المرء هذا الـ أمرُإثمٌ وهــذه فحشاءُ
ليس بين الصلاح والشر حدٌّ كالذى شاء وضْعَـهُ الأنبياء

ولعل أهم قصيدة تصور حيرته أمام الكون وألغازه وتكشف عن شعوره العميق بقصوره عن التغلغل فى حقائق الأشياء واستجلاء صفاتها وعلاقاتها ومصدر وجودها هى قصيدة « الطلاسم » وهو يستهلها بقوله :

جئتُ لا أعلم من أيـ ـنَ ولكنى أتيتُ
ولقد أبصرت قُـدَّا مى طريقاً فمشيتُ
وسأبقى ماشياً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصر ت طريقى ؟
لست أدرى

فهو يعلن فى فاتحتها جهله بمصدر وجوده بل بمصدر الوجود كله ، إنه لا يعرف إلا حياته ، وهى حياة لم يكن له فيها رأى ولا اختيار ولا إرادة ، ولجأ إلى مظهر كبير من مظاهر الطبيعة هو البحر ، يسأله عن سره وصلته بالموجودات من حوله وفى قاعه ، ولم يجد عنده مع كل سؤال سوى « لست أدرى » وفزع إلى الدير ، فلم يجد عند أهله ما يشفى حيرته وقلقه ، بل لقد وجدهم حائرين قلقين مثله :

قد دخلت الدَّيْرَ أستنـ ـطقُ فيــه الناسكينا
فإذا القــوم من الحـيرة مثــلى باهتونا

غلب اليأسُ عليهم فهمُ مستسلمونـــا
وإذا بالباب مكتـــو بٌ عليه :
لست أدرى

وانتقل إلى المقابر يسأل عن الموت ، وهل هو فناء مطلق لا قيام بعده ولا بعث ولا نشور ، ولم يجد جواباً سوى : « لست أدرى » فتولى أسفاً حائراً ، فكل ما حوله يخيم الغموض والظلام عليه ، وعاج بالفكر ، فلم يجد عنده بارقة أمل فى جواب ، وغشى نفسه صراع وعراك ، فهو لا يدرى شيئاً من أمره ، وكذلك الناس من حوله ، بل حتّى مظاهر الطبيعة :

قد رأيتُ الشهب لا تـــد رى لمـــاذا تشرقُ
ورأيت السُّحْب لا تد رى لمـــاذا تُغْدق
ورأيت الغاب لا تـــد رى لمـــاذا يورق
فلمـــاذا كلهـــا فى الـ جهل مثلى ؟
لست أدرى

فكلها مسيَّرة بدون إرادتها ، قد أكرهت على طبيعتها . وينظر فلا يجد فارقاً بينه وبين الطير والزواحف والنمل ، فلها جميعاً مثله شراب وطعام وقوت ، وتحيا طويلاً أو قصيراً وتموت ، بل إنه لا يفرّق عن الصهباء ، فهو مثلها سجين صلصال وطين وهى مثله لا تفقه وجودها ومعناها ، ويخرج من القصيدة كما دخل ، فألغاز الوجود لا تزال بدون حل :

إننى جئت وأمضى وأنـــا لا أعـــلمُ
أنـــا لغـــزٌ وذهابى كمجيئى طلسم
والذى أوجد هذا اللـ غز لغزٌ مبهـــم
لا تجادلْ ذا الحِجَى من قال : إنى
لست أدرى

وعلى هذا النحو ظلّ أبوماضى حائراً قلقـًا لا يستطيع فهم الوجود ولا فهم الكونِ من حوله ، فكل ذلك ألغاز وطلاسم ، وكأنه أعياه فـَكُّ هذه الطلاسم فرأىِ أن يزيح أثقال جهله وحيرته عن صدره بكئوس التفاؤل الشفافة ، فهى التى تخدِّر حواسه وتنيم قلقه ، وتريحه لا من التفكير فى ألغاز الوجود والحياة والفناء فحسب ، بل أيضًا من التفكير فى كل ما يجلل الحياة من بؤس وشقاء وحزن وألم .